

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يَقْدَمُ:

(الْمُحَاضَرَةُ السَّادِسَةُ)

مِنْ مَادَّةِ

صَلَّى اللهُ
وَسَلَّمَ

سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْدُ الْمَكِّيُّ - ج ٢]

www.menhag-un.com

مِنَ الْأَسَالِبِ الَّتِي اتَّخَذَتْهَا قُرَيْشٌ

لِمُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمُحَارَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ:

فَمِنَ الْأَسَالِبِ الَّتِي اتَّخَذَتْهَا قُرَيْشٌ لِمُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمُحَارَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَا كَانَ مِنْ عَرَضِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَنْفِي عَنْهُ الْمُسْتَضْعِفِينَ حَتَّى يَغْشَوْا مَجْلِسَهُ وَيَكُونُوا سَامِعِينَ لَهُ، وَقَدْ نَزَلَتْ الْآيَاتُ فِي عِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ بِشَأْنِ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهُوَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ رضي الله عنه، فَقَدْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَكَانَ أَعْمَى، وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ عْتَبَةٌ وَشَيْبَةُ ابْنِ رَبِيعَةَ وَأَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأُمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ رَجَاءً أَنْ يُسَلَّمَ بِإِسْلَامِهِمْ كَثِيرُونَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْرِئْنِي وَعَلِّمْنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، وَكَرَّرَ ذَلِكَ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ تَشَاغُلُهُ بِالْقَوْمِ، فَكَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَطْعَهُ لِكَلَامِهِ، فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ انْصَرَفَ عَنْهُ عَابِثًا وَتَرَكَهُ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزَكَّى ۝ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۝ (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَعْجَلَ ۝ (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ۝ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۝ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۝ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ لَهْفَى ۝ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ (عَبَسَ: ١-١٦)].

وَقَدْ اسْتَخْلَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمَدِينَةِ مَرَّتَيْنِ وَكَانَتْ وَفَاتُهُ رضي الله عنه بِالْقَادِسِيَّةِ، وَقِيلَ عَادَ مِنْهَا ثُمَّ تُوُفِيَ بِالْمَدِينَةِ.

وَعَلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُبَشِّرِينَ
وَالْمُتَشَرِّقِينَ وَمَنْ تَابَعَهُمْ أَنْ يَتَمَلَّوْا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا بِشَأْنِ
الْمُسْتَضْعَفِينَ؛ لِيَرَوْا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَا
عَهْدُنَا أَنْ بَشَرًا مَهْمَا كَانَ يُؤَاخِذُ نَفْسَهُ فِي كِتَابٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ هَذِهِ الْمُواخَذَةُ،
اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا أَنْكَرْنَا عُقُولَنَا، وَأَنْكَرْنَا الْفِطْرَةَ الْبَشَرِيَّةَ، وَالطَّبِيعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ، وَهَذِهِ
كُتُبُ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُصْلِحِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مَا وَجَدْنَا فِيهَا شَيْئًا مِنْ هَذَا، بَلْ رَأَيْنَا
أَنَّ أَيَّ بَشَرٍ مَهْمَا بَلَغَ يُحَاوِلُ إِخْفَاءَ مَا يُؤَاخِذُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ.

فَهَذِهِ الْمُعَاتَبَاتُ أَوْ إِنْ شِئْتَ فَسَمِّهَا الْمُؤَاخَذَاتِ الرَّفِيعَةَ مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ
عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ بَشَرٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ خَالِقِ الْقُوَى وَالْقُدْرِ، الَّذِي
لَا يُدَاهِنُ وَلَا يُحَابِي.

وَقَدْ فَطِنَ إِلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى أَحَدُ السَّلَفِ عليه السلام فَقَالَ: «لَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ
كَاتِمًا شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ لَكُتِمَ هَذَا».

وَكَذَلِكَ مِنْ أَسَالِيهِمْ فِي مُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ، وَمُحَارَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَا كَانَ مِنْ
أَسْئَلَتِهِمُ التَّعْجِيزِيَّةَ - مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهِمْ - وَمَا لَجَأُوا فِيهِ إِلَى الْيَهُودِ لِكَيْ يُرْشِدُوهُمْ
إِلَى أُمُورٍ خَفِيَّةٍ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْمِلَّةِ وَالْإِيمَانِ لِكَيْ يَسْأَلُوا عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

بَعَثَتْ قُرَيْشٌ اثْنَيْنِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلرَّسُولِ ﷺ وَهُمَا النَّضْرُ بْنُ
الْحَارِثِ بْنِ كِلْدَةَ بْنِ عُلْقَمَةَ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي

مُعِيْطٍ إِلَىٰ أَحْبَارِ يَهُودِ الْمَدِيْنَةِ، وَقَالُوا لَهُمَا سَلَاهُمْ -أَوْ سَلُوا الْيَهُودَ- عَنْ مُحَمَّدٍ، وَصِفَا لَهُمْ وَصْفَهُ، وَأَخْبِرَاهُمْ بِقَوْلِهِ؛ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ مَا لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ، فَخَرَجَا حَتَّىٰ قَدِمَا الْمَدِيْنَةَ، فَسَأَلَا أَحْبَارَ الْيَهُودِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَصَفَا لَهُمْ أَمْرَهُ وَبَعْضَ قَوْلِهِ، وَقَالَا إِنَّكُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ، وَقَدْ جِئْنَاكُمْ لِتُخْبِرُونَا عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا، فَقَالَ لَهُمْ أَحْبَارُ الْيَهُودِ: سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثٍ نَأْمُرُكُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِهِنَّ فَهُوَ نَبِيٌّ مُّرْسَلٌ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ رَجُلٌ مُّتَقَوِّلٌ، فَرَوْا فِيهِ رَأْيَكُمْ.

سَلُوهُ عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ؟ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لَهُمْ أَمْرٌ عَجِيبٌ، وَسَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَافَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا مَا كَانَ نَبُوَّهُ؟
وَسَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ مَا هِيَ؟

فَأَقْبَلَ النَّضْرُ وَعُقْبَةُ حَتَّىٰ قَدِمَا عَلَىٰ قُرَيْشٍ، فَقَالَا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَضْلِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، قَدْ أَمَرْنَا أَحْبَارَ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أُمُورٍ، فَأَخْبَرَاهُمْ بِهَا، فَجَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا، فَسَأَلُوهُ عَمَّا أَمَرُوهُمْ بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أُخْبِرْكُمْ غَدًا بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ، وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ!

فَانصَرَفُوا عَنْهُ، وَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لَا يُحَدِّثُ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَحَيًّا، وَلَا يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ، حَتَّىٰ أَرْجَفَ أَهْلُ مَكَّةَ وَقَالُوا: وَعَدَنَا مُحَمَّدٌ غَدًا وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً قَدْ أَصْبَحْنَا مِنْهَا، لَا يُخْبِرُنَا بِشَيْءٍ مِمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ، حَتَّىٰ

أَحْزَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُكْتُ الْوَحْيِ عَنْهُ، وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ، ثُمَّ جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ اللَّهِ ﷻ بِصُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ احْتَبَسْتَ عَنِّي يَا جِبْرِيلُ حَتَّى سَوْتُ ظَنًّا»، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وَقَدْ افْتَتَحَ السُّورَةَ ﷻ بِحَمْدِهِ وَذَكَرَ نُبُوَّةَ نَبِيِّهِ، وَبِذِكْرِ آيَةِ الْعُظْمَى وَهِيَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَهُوَ آيَةُ بَيِّنَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ لَا عِوَجَ فِيهَا وَلَا اخْتِلَافَ وَلَا تَنَاقُضَ، أُنْزِلَهُ لِإِنذَارِ الْكَافِرِينَ وَالْعَاصِينَ، وَتَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ، فَقَالَ ﷻ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ...﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ يَقُولُوا إِلَّا كَذِبًا﴾، ثُمَّ أَشْفَقَ عَلَيْهِ لِحُزْنِهِ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِ قَوْمِهِ حُزْنًا يَكَادُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

ثُمَّ شَرَعَ ﷻ فِي الْإِجَابَةِ عَنْ قِصَّةِ مَنْ سَأَلُوهُ عَنْهُمْ مِنْ شَأْنِ الْفِتْيَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ، فَقَالَ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]. إِلَى آخِرِ قِصَّتِهِمْ.

وَذَكَرَ فِي أَثْنَائِهَا تَعْلِيمُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِذِكْرِ الْمَشِيئَةِ فِي كَلَامِهِ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِسَائِي إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

ثُمَّ ذَكَرَ شَأْنَ الرَّجُلِ الطَّوَّافِ فَقَالَ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]. إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي سُؤَالِهِمْ عَنِ الرُّوحِ قَوْلَهُ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ
الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي سِيرَتِهِ يُوَافِقُهُ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي
مُسْنَدِهِ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ وَقَالَ: إِنَّهُ صَحِيحٌ، وَهُوَ يَتَّفِقُ وَكَوْنُ الْآيَةِ مَكِّيَّةً،
وَلَكِنْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ وَقَدْ مَرَّ عَلَى يَهُودٍ
وَهُوَ مُتَكَيِّ عَلَى عَسِيفٍ نَخْلٍ، فَقَالَ الْيَهُودُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ،
فَسَكَتَ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَقَامَ سَاعَةً يَنْظُرُهُمْ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: فَظَنَنْتُ أَنَّهُ
يُوحَى إِلَيْهِ، فَلَمَّا سُرِّي عَنْهُ قَالَ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾ الْآيَةِ.

وَهَذَا يَتَقَضِي أَنَّ السَّائِلَ الْيَهُودَ، وَأَنَّ الْآيَةَ مَدَنِيَّةٌ، فَمِنْ ثَمَّ رَجَعَ بَعْضُ
الْعُلَمَاءِ مَا فِي الصَّحِيحَيْنِ وَقَالُوا: إِنَّ الْآيَةَ مَدَنِيَّةٌ، وَبَعْضُ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ فِيهَا
بَعْضُ الْآيَاتِ الْمَدَنِيَّةِ وَبِالْعَكْسِ.

وَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ وَمِنْهُمْ ابْنُ كَثِيرٍ إِلَى تَعَدُّدِ النُّزُولِ، بِأَن تَكُونَ نَزَلَتْ فِي
مَكَّةَ بِسَبَبِ سُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ لَهُ بَعْدَ اسْتِشَارَتِهِمْ الْيَهُودَ، ثُمَّ نَزَلَتْ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدُ
لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْيَهُودِ وَسَأَلُوهُ، وَلَا مَانِعَ كَمَا قَالَ الزَّرْكَشِيُّ وَغَيْرُهُ، مِنْ
تَكَرُّرِ نُزُولِ بَعْضِ آيِ الْقُرْآنِ تَعْظِيمًا لِسَانِهَا وَتَذْكِيرًا بِهَا.

وَقَدْ حَمَلُوا قَوْلَ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَسَكَتَ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَقَامَ
سَاعَةً يَنْظُرُ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَلَمَّا سُرِّي عَنْهُ قَالَ:
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾ الْآيَةِ.

حَمَلُوا هَذِهِ السَّكَّةَ عَلَى أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ هُنَاكَ مَزِيدٌ عِلْمٍ يَأْتِيهِ بِغَيْرِ مَا قَدْ نَزَلَ قَبْلُ، أَوْ بزيادةٍ عَلَيْهِ.

لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ قَالَ أَحْبَابُ يَهُودَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ قَوْلَكَ: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. أَيْبَانَا تُرِيدُ؟ أَمْ تُرِيدُ قَوْمَكَ؟ قَالَ: كُلَّا عَنِيتُ.

قَالُوا: فَإِنَّكَ تَتْلُو فِيمَا جَاءَكَ أَنَّا أُوْتِينَا التَّوْرَةَ فِيهَا بَيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّهَا فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلٌ، وَعِنْدَكُمْ فِي ذَلِكَ مَا يَكْفِيكُمْ لَوْ أَقْمَتُمُوهُ»

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ فِيمَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

أَيَّ أَنَّ التَّوْرَةَ وَغَيْرَهَا مِنْ عِلْمِ اللَّهِ شَيْءٌ قَلِيلٌ.

وَمِمَّنْ كَانَ يُصِيبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْأَذَى وَيُجَادِلُهُ وَيُرِدُّ عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَاكِ مَهِينٍ﴾ (١٠) هَمَزٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ (١١) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ [الفلم: ١٠-١٣].

وَكَانُوا يَتَهَكَّمُونَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيَتَهَكَّمُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانُوا يَأْتُونَ بِعُظَائِمِ الْأَقْوَالِ وَمُنْكَرَاتِهَا، وَتَنْزِلُ الْآيَاتُ فِي شَأْنِ هَؤُلَاءِ عِنْدَ مُجَادَلَاتِهِمْ بَلْ وَعِنْدَ أَمَانِيهِمْ، وَقَدْ اعْتَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبِي بَنَ خَلْفٍ وَهُوَ

يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ، وَكَذَا الْأَسُودُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، وَالْعَاصُ بْنُ وَائِلِ السَّهْمِيِّ، وَكَانُوا ذَوِي أَسْنَانٍ فِي قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ هَلُمَّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ، وَتَعْبُدْ مَا نَعْبُدُ فَشَرِكْ نَحْنُ وَأَنْتَ فِي الْأَمْرِ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي تَعْبُدُ خَيْرًا مِمَّا نَعْبُدُ كُنَّا قَدْ أَخَذْنَا بِحِظْنِ مَنْهُ، وَإِنْ كَانَ مَا نَعْبُدُ خَيْرًا مِمَّا تَعْبُدُ كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَ بِحِظِّكَ مِنْهُ، وَهُوَ عَرَضٌ خَيْثُ مَا كَرِهَ يَدُلُّ عَلَى حِيلَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَبَاقَةٍ فِي حُسْنِ الْعَرَضِ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى مَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ الْقَوْمُ مِنْ ذِكَاٍ وَفُطْنَةٍ وَعَقْلِ، وَلَكِنَّ حَجَبَتِهَا الْعَقَائِدُ الْمُرُوثَةُ وَالْأَوْهَامُ الْفَاسِدَةُ وَالتَّقْلِيدُ لِمَا عَلَيْهِ الْأَبَاءُ عَنِ الْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْحِيلَةُ الْمَاكِرَةُ لَتَجُوزَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ رَفَضَهَا وَاسْتَنْكَرَهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَأْيِيسًا لَهُمْ وَقَطْعًا لِأَطْمَاعِهِمْ: ﴿قُلْ يَتَّيْهَا الْكَافِرُونَ﴾ ١ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ٢ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ٣ ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ ٤ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ٥ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ٦ [سورة الكافرون].

وَالنَّفْيُ فِي الْآيَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَنِ الْحَاضِرِ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ٢ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، وَفِي الْآيَتَيْنِ الْآخِرَتَيْنِ يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَقْبَلِ ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ ٤ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وَذَلِكَ لِقَطْعِ أَطْمَاعِهِمْ فِيهِ فِي الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ، ثُمَّ أَكَّدَ النَّفْيَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

وَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ أَنَّ سِيَاسَةَ الْإِغْرَاءِ وَالْمُلَايِنَةِ وَالْمُجَادَلَةِ وَالْمُغَالَطَةِ لَمْ تَجِدْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَادُوا إِلَى سِيَاسَةِ الْإِيذَاءِ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ يُؤْذِي بِهِ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَكَانَ مِنْ شَيَاطِينِ قُرَيْشٍ، وَيَنْصِبُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْعَدَاوَةِ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مُعَارَضَةً مَا يَذْكُرُهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ أَسَاطِيرَ تَعَلَّمَهَا مِنْ بِلَادِ الْحِيرَةِ عَنْ مُلُوكِ فَارِسٍ، وَأَحَادِيثَ رُسْتَمَ وَاسْفَنْدِيَارَ، فَكَانَ إِذَا جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسًا يَعْلَمُ وَيَذْكُرُ خَلْفَهُ فِي مَجْلِسِهِ فَحَدَّثَهُمْ بِمَا مَعَهُ ثُمَّ يَقُولُ: مَا مُحَمَّدٌ بِأَحْسَنَ حَدِيثًا مِنِّي، أَنَا وَاللَّهُ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْهُ، وَمَا حَدِيثُهُ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا كَمَا اكْتَتَبَهَا، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي مَقَالَتِهِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦-٥﴾ [الفرقان: ٥-٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاطٌ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧-٦﴾ [لقمان: ٦-٧].

وَمِنَ الْعَجِيبِ حَقًّا، أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ رَوَى عَنْ هَذَا الشَّيْطَانِ الْمُتَمَرِّدِ عَلَى النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِقُرَيْشٍ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّهُ وَاللَّهُ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ أَمْرٌ مَا أَتَيْتُمْ لَهُ بِحِيلَةٍ بَعْدُ، قَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيكُمْ غَلَامًا حَدَّثَا أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ فِي صُدْغِيهِ الشَّيْبَ وَجَاءَكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ قُلْتُمْ: سَاحِرٌ، لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِسَاحِرٍ! لَقَدْ رَأَيْنَا السَّحَرَةَ نَفْسَهُمْ وَعُقْدَهُمْ، وَقُلْتُمْ:

كَاهِنٌ، لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِكَاهِنٍ! وَقَدْ رَأَيْنَا الْكَهَنَةَ وَتَخَالُجَهُمْ، وَسَمِعْنَا سَجْعَهُمْ، وَقُلْتُمْ: شَاعِرٌ، لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، وَقَدْ رَأَيْنَا الشُّعْرَ وَسَمِعْنَا أَصْنَافَهُ كُلَّهَا هَزَجَهُ وَرَجَزَهُ، وَقُلْتُمْ: مَجْنُونٌ، لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُونَ فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ وَلَا وَسُوسَتِهِ وَلَا تَخْلِيطِهِ.

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، فَانْظُرُوا فِي شَأْنِكُمْ فَإِنَّهُ وَاللَّهِ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ!
وَكَأَنَّهُ كَانَ يَرَى هَذَا وَيَعْتَقِدُهُ، ثُمَّ انْجَرَفَ فِي تَيَّارِ عِدَاوَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُعَادَاتِهِ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ شِقْوَتُهُ فَصَارَ يَتَعَقَّبُ الرَّسُولَ ﷺ وَيَقُولُ فِيهِ مَا قَالَ.
وكَذَلِكَ أُمِّيَّةٌ بَنُ خَلْفٍ كَانَ يَهْمُزُ الرَّسُولَ ﷺ وَكَانَ يُغْرِي بِهِ كَمَا وَقَعَ فِي إِغْرَائِهِ لِعُقْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ.

وكَذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ الَّذِي كَانَ يَلْمِزُ النَّبِيَّ، وَيَصِفُهُ بِأَنَّهُ أَبْتَرٌ، فَقَدْ بَلَغَ الْبُغْضُ وَالسَّفَهَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ أَنْ عَابُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَا خَيْرَ لَهُ فِيهِ مِنْ مَوْتِ أَوْلَادِهِ الذُّكُورِ، وَلَا يُخِلُّ هَذَا بِيَدَيْنِ وَلَا مُرُوءَةٍ وَلَا رُجُولَةٍ، فَمِنْ هَؤُلَاءِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، كَانَ إِذَا ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: دَعُوهُ! فَإِنَّمَا هُوَ أَبْتَرٌ لَا عَقِبَ لَهُ لَوْ مَاتَ لَانْقَطَعَ ذِكْرُهُ وَاسْتَرَحَّتُمْ مِنْهُ فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى سُورَةَ الْكَوْثَرِ بَيَانًا لِبَعْضِ مَا رَفَعَ اللَّهُ بِهِ ذِكْرَ رَسُولِهِ، وَأَنَّ شَانِيَهُ هُوَ الْأَبْتَرُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (١) فَصَلِّ

لِرَبِّكَ وَانْحَرِ (٢) إِنَّ شَانِيَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) [سورة الكوثر: ١-٣].

وَالنَّبِيُّ ﷺ رَبَّمَا غَاظَهُ هَذَا الَّذِي كَانَ يَقَعُ مِنْ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينِ مِنَ
الْإِسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُسْلِيًا وَمُوَاسِيًا وَمُنْدِدًا بِهِمْ وَمُنْذِرًا قَوْلَهُ
تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١].

وَلَمْ يَعْباَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكُلِّ هَذَا، بَلْ مَضَى إِلَى سَبِيلِهِ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَمَا زَادَهُ الْإِسْرَافُ فِي الْإِيْذَاءِ وَالْإِسْتِهْزَاءِ إِلَّا
إِصْرَارًا عَلَى الدَّعْوَةِ، وَلَمَّا اشْتَدَّ أَذَى قُرَيْشٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَدَّاهُمْ وَدَعَا عَلَيْهِمْ
كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «حَضَرْتُهُمْ وَقَدْ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ
يَوْمًا فِي الْحِجْرِ فَذَكَّرُوا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا
الرَّجُلِ قَطُّ سَفَهَ أَحْلَامَنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ
آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَابَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ أَوْ كَمَا قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ
عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ
فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا يَقُولُونَ، قَالَ: فَعَرَفْتَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ
مَضَى، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمْ الثَّلَاثَةَ فَعَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، قَالَ: «تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَمَّا
وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ!» - أَيْ جِئْتُكُمْ بِالْهَلَاكِ -
وَاسْتِهْزَاؤُكُمْ بِنَبِيِّكُمْ مِنْ أَسْرَعَ أَسْبَابِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ، فَأَخَذَتِ الْقَوْمُ
كَلِمَتَهُ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا كَانَمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ
وَسَاطًا مِنْ قَبْلِ لِيرَفَاهُ بِأَحْسَنَ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْمِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انْصَرِفْ أَبَا

الْقَاسِمِ.. انصَرَفَ رَاشِدًا فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ جَهُولًا! قَالَ: فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ وَأَنَا مَعَهُمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ حَتَّى إِذَا بَادَءَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثَبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ فَأَحَاطُوا بِهِ يَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا - كَمَا كَانَ يَبْلَغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ؟ قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ!

قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ قَالَ: وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ دُونَهُ يَقُولُ وَهُوَ يَبْكِي: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟! ثُمَّ انصَرَفُوا عَنْهُ فَإِنَّ ذَلِكَ لِأَشَدُّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا بَلَغَتْ مِنْهُ ﷺ.

لَمَّا وَقَعَ مِنْهُمْ مَا وَقَعَ دَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا وَقَعَ لَمَّا دَعَا عَلَيْهِمْ عِنْدَمَا وَضَعَ أَشَقَى الْقَوْمِ سَلَا الْجُزُورِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ﷺ وَهُوَ سَاجِدٌ عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَهُمْ يَسْتَضْحِكُونَ يَمِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الضَّحِكِ حَتَّى إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَرْفَعْ مِنْ سُجُودِهِ حَتَّى جَاءَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَنَحَّتْ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا طَرَحُوهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ تَشْتِمُهُمْ فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمْ الضَّحِكُ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ بْنِ هِشَامٍ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ»، قَالَ: وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ

أَحْفَظُهُ، فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَى صَرَعى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سَحَبُوا إِلَى الْقَلِيبِ قَلِيبٍ بَدْرٍ». أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: ذَكَرَ السَّابِعَ وَهُوَ عُمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ.

مَعَ هَذَا الْإِيذَاءِ كَانَ حِفْظُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا قَائِمًا، وَكَذَلِكَ كَانَتْ تَسْلِيَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ تَثَبُّتُ فُؤَادِهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «إِنَّ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحَجْرِ، فَتَعَاقَدُوا بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى وَنَائِلَةَ وَإِسَافٍ، لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا لَقَدْ قُمْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَلَمْ نَفَارِقْهُ حَتَّى نَقْتُلَهُ، فَأَقْبَلَتِ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَبْكِي حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: هَؤُلَاءِ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ، لَوْ قَدْ رَأَوْكَ، لَقَدْ قَامُوا إِلَيْكَ فَقَتَلُوكَ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ عَرَفَ نَصِيبَهُ مِنْ دِمِكَ، فَقَالَ: يَا بَنِيَّ، أَرِينِي وَضُوءًا - وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي يُتَوَضَّأُ بِهِ -، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَا هُوَ ذَا، وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ، وَسَقَطَتْ أَذْقَانُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، وَعَقِرُوا فِي مَجَالِسِهِمْ أَيْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُقَدِّمُوا وَلَا أَنْ يَتَقَدَّمُوا وَلَا أَنْ يَتَأَخَّرُوا وَانْهَارَتْ قُورَاهُمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا الْقِيَامَ فَعَقِرُوا فِي مَجَالِسِهِمْ، فَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ بَصَرًا، وَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ رَجُلٌ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قَامَ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ، فَقَالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ - أَيْ قَبَحَ اللَّهُ مَنَظَرَهَا، ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ مِنَ التُّرَابِ فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَى حَصَاةً إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا». الْحَدِيثُ حَدِيثٌ حَسَنٌ. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الدَّلَائِلِ وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ.

وَمَا كَانَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِيَدْعَ نَبِيَّهُ ﷺ بَلْ كَانَ مَعَهُ بِالْنُّصْرَةِ وَالْتَّيِيدِ.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ جَبْرِيلُ عليه السلام إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ جَالِسٌ حَزِينًا، قَدْ خُضِبَ بِالدِّمَاءِ، ضَرْبُهُ أَهْلَ مَكَّةَ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ: فَعَلَ بِي هَؤُلَاءِ، وَفَعَلُوا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ عليه السلام: أَتُحِبُّ أَنْ أُرِيكَ آيَةً؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَى شَجَرَةٍ مِنْ وَرَاءِ الْوَادِي، فَقَالَ: ادْعُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ. فَدَعَاَهَا، فَجَاءَتْ تَمْشِي حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: مُرْهَا فَلْتَرْجِعْ. فَأَمَرَهَا، فَرَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَسْبِيَ»، أَيِ هَذَا يَكْفِينِي. وَالْحَدِيثُ حَدِيثٌ صَحِيحٌ أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَابْنُ مَاجَهَ فِي سُنَنِهِ.

لَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ يُحَاوِلُونَ الْإِغْرَاءَ، كَمَا كَانُوا يَأْتُونَ بِالْإِيْدَاءِ وَكَمَا مَرَّ كَانُوا أَذْكَيَاءَ، وَكَانُوا يَصْدُرُونَ عَنْ خُطَطٍ مُحْكَمَةٍ فِي مُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ، فَلَمْ تَكُنْ مُحَارَبَتُهُمْ لِلدَّعْوَةِ وَلَا مَنْ جَاءَ بِهَا لَمْ تَكُنْ مُحَاوَلَاتُهُمْ مُحَاوَلَاتٍ اعْتِبَاطِيَّةً، وَإِنَّمَا كَانَتْ بِدْرَاسَةٍ وَتَنْظِيمٍ فَيَجْتَمِعُونَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُقَرَّرُوا، ثُمَّ يَجْتَهِدُونَ فِي دِقَّةِ التَّنْفِيدِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تِلْكَ الْأَسَالِيبِ، وَمِنْهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَلْجَأُونَ إِلَى التَّرْغِيبِ تَارَةً، وَإِلَى التَّرْهِيْبِ تَارَةً، وَإِلَى الْإِيْدَاءِ تَارَةً، وَإِلَى الْإِغْرَاءِ تَارَةً أُخْرَى، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ قُرْآنًا يُتْلَى، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [الفلم: ٩].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رحمته الله فِي تَفْسِيرِهِ: وَدَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ يَا مُحَمَّدُ لَوْ تَلَيْنَ لَهُمْ فِي دِينِكَ بِإِجَابَتِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الرُّكُونِ إِلَى آلِهَتِهِمْ، فَيَلِينُونَ لَكَ فِي عِبَادَتِكَ إِلَهَكَ،

كَمَا قَالَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ -: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَاكَ لَفَتَدَكَّتْ تَرَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥].

وإنَّما هو مأخوذ من الدهن، شبه التلّين في القول بتلّين الدهن، وقد معني أيضًا ما عرّضوه على النبي ﷺ من أن يعبد آلهتهم شهرًا أو عامًا، وأن يعبدوا إلهه شهرًا أو عامًا، فأنزل الله تبارك وتعالى سورة الكافرون، قال ابن إسحاق: «وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد فجلس إليه المستضعفون من أصحابه خباب وعمار وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية، وصهيب وأشباههم من المسلمين هزأت بهم قريش، فقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهولاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق؟

لو كان ما جاء به محمد ﷺ خيرًا مما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا، فأرادوا أن يعزوا النبي ﷺ بطرد هؤلاء المستضعفين ليحلوا هم محلهم والنبي ﷺ كان حريصًا على هدايتهم وإسلامهم رجاء أن يسلم من وراءهم، ولكن الله تبارك وتعالى أنزل في ذلك: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].



اسْتِمَاعُ زُعَمَاءِ الشُّرْكِ إِلَى الْقُرْآنِ سِرًّا

لَقَدْ كَانَ مِنْ أَسَالِيهِمْ مَا كَانَ مِنْ مَوْقِفِهِمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا كَانَ مَوْقِفُهُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَاصُونَ بِعَدَمِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُعَظِّمُونَ الْقُرْآنَ، وَكَانُوا يَسْتَمْعُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَرَاءِ بَعْضِهِمْ، يَغْنِي يَذْهَبُ هَذَا لِيَسْتَمَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ يَكُونُ حَرِيصًا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ عَلَى أَلَّا يَطْلُعَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَيَذْهَبَ الْآخَرُ، وَيَذْهَبَ الثَّالِثُ، وَرُبَّمَا تَقَابَلُوا فَتَلَاوُمُوا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا مَرَّ بَعْضُ ذِكْرِهِ.



جامع منہاج النبوة

www.menhag-un.com

أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُؤْذُونَ مَنْ يَجْهَرُ بِالْقُرْآنِ خَشْيَةً تَأْثِيرِهِ فِي نَفْسِهِمْ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَدْ اجْتَمَعَ يَوْمًا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: «وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ قُرَيْشَ هَذَا الْقُرْآنَ يَجْهَرُ بِهِ قَطُّ، فَمَنْ الرَّجُلُ يُسْمِعُهُمْ إِيَّاهُ؟» فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: أَنَا. قَالُوا: إِنَّا نَخْشَاهُمْ عَلَيْكَ، إِنَّمَا نُرِيدُ رَجُلًا لَهُ عَشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنَ الْقَوْمِ إِنْ أَرَادُوهُ. قَالَ: دَعُونِي فَإِنَّ اللَّهَ سَيَمْنَعُنِي، فَعَدَا ابْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى الْمَقَامَ فِي الضُّحَى وَقُرَيْشٌ فِي أُنْدِيَّتِهَا، حَتَّى قَامَ عِنْدَ الْمَقَامِ، ثُمَّ قَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. رَافِعًا بِهَا صَوْتَهُ ﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿[الرحمن: ١-٢].

ثُمَّ اسْتَقْبَلَهَا يَقْرَأُهَا، فَتَأَمَّلُوهُ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: مَاذَا قَالَ ابْنُ أُمِّ عَبْدِ؟ ثُمَّ قَالُوا: إِنَّهُ لَيَتْلُو بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فِي وَجْهِهِ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَدْ أَثَرُوا فِي وَجْهِهِ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا الَّذِي خَشِينَاهُ عَلَيْكَ. فَقَالَ: مَا كَانَ أَعْدَاءُ اللَّهِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُمْ الْآنَ، وَلَكِنْ شِئْتُمْ لِأَعَادِيَتِهِمْ بِمِثْلِهَا غَدًا. قَالُوا: لَا، حَسْبُكَ لَقَدْ أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ!».

سؤال المشركين النبي ﷺ عن أهل الكهف، وذي القرنين، والروح واستعانتهم باليهود

لَجَأُوا كَمَا مَرَّتِ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ وَهُوَ مِنْ أَسَالِبِهِمْ فِي مُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ
وَمَنْ جَاءَ بِهَا ﷺ، لَجَأُوا إِلَى الْيَهُودِ، وَهَذَا فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ فَالْيَهُودُ كَانُوا لَهُمْ
دَوْرٌ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ وَقَبْلَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا مَرَّ مِنْ إِيفَادِ النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ
وَمَنْ كَانَ مَعَهُ إِلَى الْيَهُودِ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْأَلَهُمْ عَنْ أُمُورٍ يَعْرِفُونَ بِهَا مَا
جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَيْضًا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعُودُوا بِبَعْضِ الْأَسْئَلَةِ التَّعْجِيزِيَّةِ لِرَسُولِ اللَّهِ
ﷺ. وَالْيَهُودُ صُدِّمُوا بِبِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ صَدْمَةً قَوِيَّةً، لِأَنَّهُمْ عَاشُوا فِي جَزِيرَةِ
الْعَرَبِ عَلَى حُلُمٍ تَوَارَثُوهُ طَوَالَ السِّنِينَ الْمَاضِيَةِ وَهُوَ أَنَّهُ سَيَبْعُثُ نَبِيًّا مُخْلَصٌ فِي
ذَلِكَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ فَرَجَوْا أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ أَمَلِينَ أَنْ يُخْلَصَهُمْ مِنَ الْفَقْرِ
وَالشَّتَاتِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ، وَكَانَ التَّقَارُبُ بَيْنَ مُعَسَّكِرِ الْكُفْرِ وَالشَّرْكِ مَعَ الْيَهُودِ
يَنْسَجِمُ مَعَ أَهْدَافِهِمُ الْمُشْتَرَكَةَ لِلْقَضَاءِ عَلَى دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ؛ وَلِذَلِكَ زَوَّدُوا الْوَفْدَ
الْمَكِّيَّ بِبَعْضِ الْأَسْئَلَةِ مُحَاوَلَةً لَتَعْجِيزِ النَّبِيِّ ﷺ كَالسُّؤَالِ عَنْ أَصْحَابِ
الْكُهْفِ، وَعَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ، وَالسُّؤَالِ عَنِ الرُّوحِ.

مِنْ أَسَالِبِ الْمُشْرِكِينَ فِي مُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ وَالرَّسُولِ ﷺ اضْطِهَادُ أَتْبَاعِهِ
وَفِتْنَتُهُمْ فَالَّذِي مَرَّ فِي جُمْلَتِهِ إِنَّمَا كَانَ فِي اضْطِهَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِيصَالِ

الإيذاء له ﷺ في نفسه وفي بدنه، وقد واكب ذلك وربما سبقه ما كان من اضطهادهم لاتباعه ﷺ في محاولة جادة لفتنتهم فسلكت قريش في محاولتها فتنة المسلمين أسلوبين هما:

الضغوط النفسية، والتعذيب الجسدي.

يلجأ بعض أقارب المسلمين من الكفار إلى الضغوط النفسية للتأثير على المسلمين كما فعلت أم سعد بن أبي وقاص ﷺ حين أقسمت ألا تكلمه وألا تأكل ولا تشرب حتى يكفر بدينه لعلمها أن المسلمين يحترمون والديهم، وقالت: زعمت أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك.. وأنا أمرك بهذا، فكان يغشى عليها من الجهد والتعب فإذا أجبروها على شربة ماء شتمت سعدًا، فشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

فهذا مثال من أمثلة كثيرة سيأتي بعضها إن شاء الله في الضغط النفسي الذي كان يمارس على أتباع نبينا محمد ﷺ، وهو ضغط أيضا منظم ومدروس، فإنما دخلت إليه من باب دينه، وتقول: تزعم أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك.. وأنا أمرك بهذا.

وأما التعذيب الجسدي، فقد لقي أتباع النبي ﷺ من الأذى أشده، ومن التعذيب أقساه من كفار قريش في محاولة منهم لإيقاف حركة هذا الدين الجديد، وصدد الناس عن الدخول فيه.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مُوضَّحًا ظُرُوفَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ الْعَصِيبَةِ الَّتِي عَاشَهَا
أَوَائِلُ الْمُسْلِمِينَ: «كَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ إِمَّا قَتْلُوهُ، وَإِمَّا
يُعَذِّبُونَهُ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَكَانَ مِنْ وَسَائِلِهِ فِي ذَلِكَ الضَّرْبُ، وَحَبْسُهُمْ فِي حَرِّ الشَّمْسِ وَقَتًا طَوِيلًا
مَعَ وَضْعِ الصُّخُورِ الثَّقِيلَةِ عَلَيْهِمْ، أَوْ إِبْلَاسُهُمُ الدَّرُوعَ الْحَدِيدِيَّةَ الْحَارَّةَ، وَجَوْ
مَكَّةَ مَعْلُومٌ لِكُلِّ مَنْ زَارَهَا حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، فَكَانُوا يُعَرِّضُونَهُمْ لِحَرَارَةِ الشَّمْسِ
فِي حِمَارَةِ الْقَيْظِ لَيْسَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا يَسْتُرُ الْعَوْرَةَ وَقَدْ يَطْرَحُونَهُمْ عَلَى الرَّمْضَاءِ
وإنَّهَا لَيَشْوَى عَلَيْهَا اللَّحْمَ الْحَيَّ، يَحْبِسُونَهُمْ فِي حَرِّ الشَّمْسِ وَقَتًا طَوِيلًا مَعَ
وَضْعِ الصُّخُورِ الثَّقِيلَةِ عَلَيْهِمْ، أَوْ إِبْلَاسِهِمُ الدَّرُوعَ الْحَدِيدِيَّةَ الْحَارَّةَ، وَقَدْ يَأْمُرُونَ
الصَّبِيَّانَ بِسَخْبِهِمْ فِي الطَّرَقَاتِ لِيَسْخَرَ مِنْهُمْ النَّاسُ وَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَمِنْهُمْ
مَنْ فَقَدَ بَصَرَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ فِي التَّعْذِيبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَمَّى عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ
الْأَذَى، وَاضْطُرَّ بَعْضُهُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِقُرَيْشٍ مِنْ شِدَّةِ الْأَذَى، وَأَنْ يَنْطِقَ مُكْرَهًا
بِالْكُفْرِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَتَخَلَّصَ مِنَ الْعَذَابِ، فَإِذَا أَفَاقُوا مِنَ الْعَذَابِ شَقَّ عَلَيْهِمْ مَا
تَكَلَّمُوا بِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرْآنًا يُبَيِّحُ لَهُمْ ذَلِكَ مَا دَامَتْ قُلُوبُهُمْ
مُطْمَئِنَّةً بِالْإِيمَانِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

وَقَدْ كَانَ نَصِيبُ الْمَوَالِي الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ عَشِيرَةً تَحْمِيهِمْ مِنْ هَذَا
التَّعْذِيبِ كَبِيرًا.

وَأَمَّا ذِكْرُ أَلْوَانِ الْعَذَابِ الْوَحْشِيِّ الَّتِي تَعَرَّضَ لَهَا الْمَوَالِي فَإِنَّهَا لَا يَلِيْقُ بِهَا، وَلَا يَتَّسِعُ لَهَا مَجَالٌ وَلَا مَجَالَاتٌ، وَلَكِنْ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ كَانَ أُمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ يَمْنَعُ مَوْلَاهُ بِلَالُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ رضي الله عنه مِنَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَطْشُهُ أَخْرَجَهُ فِي الرَّمْضَاءِ فِي الْيَوْمِ الْحَارِّ يُعَذِّبُهُ وَيَأْمُرُ بِتَعْذِيبِهِ وَيَضَعُ الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ عَلَى صَدْرِهِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بِهِ الْعَذَابُ مُنْتَهَاهُ قَالَ لَهُ: لَا تَرَأُ هَكَذَا حَتَّى تَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، وَتَعْبُدَ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، فَلَا يَزِيدُ ذَلِكَ بِلَالًا إِلَّا إِصْرَارًا، فيقول: أَنَا كَافِرٌ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فيَغْتَاطُ مِنْهُ أُمِيَّةٌ فيَجْعَلُ فِي رَقَبَتِهِ حَبْلًا فيَدْفَعُهُ لِلصَّبْيَانِ يَجْرُونَهُ فِي شَوَارِعِ مَكَّةَ، وَلَا يَزَالُ أُمِيَّةٌ يُكْرِرُ مَعَهُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ الْوَحْشِيَّةَ فِي التَّعْذِيبِ وَكَثِيرًا مَا يُغْشَى عَلَى بِلَالٍ مِنْ شِدَّةِ التَّعْذِيبِ، وَحِينَمَا يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْكُفْرَ بِمُحَمَّدٍ دِينَهُ لَا يَزِيدُ عَلَى قَوْلِهِ: أَحَدٌ أَحَدٌ، وَظَلَّ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ حَتَّى اشْتَرَاهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَأَعْتَقَهُ.

وَمِمَّنْ عَذَّبَ مِنَ الْمَوَالِي خَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِّ فَقَدْ نَالَهُ قَرِيبٌ مِمَّا نَالَ بِلَالًا بِوَضْعِ الصَّخْرِ الْمُلْتَهَبِ عَلَى جَسَدِهِ، وَمَرَّةً أُوقِدَتْ نَارٌ وَوُضِعَ عَلَيْهَا، فَمَا أَطْفَأَهَا إِلَّا وَدُكُّ ظَهْرِهِ، أَيْ الدُّهْنُ الَّذِي يَسِيلُ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَدْ دَخَلَ خَبَّابٌ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فِي خِلَافَتِهِ وَكَشَفَ عَنْ ظَهْرِهِ، وَأَرَاهُ أَثَرَ النَّارِ فِي ظَهْرِهِ.

أَمَّا آلُ يَاسِرٍ، يَاسِرٌ وَزَوْجَتُهُ سُمَيَّةُ وَابْنُهُ عَمَّارٌ فَهُمْ مِثَالُ صَدِيقٍ لِلْأُسْرَةِ الْمُبْتَلَاةِ فِي سَبِيلِ الثَّبَاتِ عَلَى الدِّينِ، فَكَانَ أَسْيَادُهُمْ بَنُو مَخْزُومٍ يُخْرِجُونَهُمْ إِذَا اشْتَدَّتْ الظَّهِيرَةُ فيَعَذِّبُونَهُمْ، فيَمُرُّ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ مُثَبَّتًا

لَهُمْ: أَبْشَرُوا آلَ عَمَّارٍ وَآلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ. وَقَدْ اسْتَشْهَدَتْ سُمَيَّةٌ مِنْ جَرَاءِ التَّعْذِيبِ، ثُمَّ لَحِقَ بِهَا زَوْجُهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَإِذَا كَانَ نَصِيبُ الْمَوَالِي وَالضُّعَفَاءِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ عَشِيرَةً تَحْمِيهِمْ مِنْ هَذَا التَّعْذِيبِ أَكْبَرَ قَدْرًا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَإِنَّ أَهْلَ الشَّرَفِ وَمَنْ لَهُمْ عَشِيرَةٌ قَدْ نَالُوا نَصِيْبَهُمْ مِنْ أَذَى التَّعْذِيبِ فَقَدْ ضَرَبَ الْمُشْرِكُونَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى مَا يُعْرِفُ وَجْهَهُ مِنْ أَنْفِهِ.

وَكَانَ الْحَكَمُ بِنِ أَبِي الْعَاصِ عَمُّ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ بَلَغَهُ إِسْلَامُ عُثْمَانَ يُوثِقُهُ رِبَاطًا.

وَكَانَ عَمُّ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ يُلْفُ الزُّبَيْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِحَصِيرٍ ثُمَّ يَدْخُنُ عَلَيْهِ النَّارَ.

وَلَمْ تَكُنِ الْمَرْأَةُ الْمُسْلِمَةُ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ بِمَعْزِلٍ عَنْ هَذَا التَّعْذِيبِ الْوَحْشِيِّ، بَلْ كَانَ لَهَا نَصِيبٌ لَا يَقِلُّ عَنْ نَصِيبِ الرَّجُلِ مِنَ الْعَذَابِ كَمَا وَقَعَ لِسُمَيَّةَ أُمِّ عَمَّارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَهَذَا مُجْمَلٌ لِمَا كَانَ.

وَهَذَا بَعْضُ التَّفْصِيلِ:

لَقَدْ مَضَى الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَسْتَقْرِئُ مِنْهُ، وَأَدْرَكَتْ أَلَّا جَدَوَى مِنْ تِلْكَ الْأَسَالِيبِ الَّتِي سَلَكَتَهَا مَعَهُ فِي كَفِّ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْقَضَاءِ عَلَيْهَا، فَاجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَقَرَّرُوا اللُّجُوءَ إِلَى الْعُنْفِ وَالْقُوَّةِ فِي

مُحَارَبَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُتَمِّينَ إِلَيْهِ، وَأَصْدَرُوا أَوَامِرَهُمْ إِلَى الْقَبَائِلِ لِيَصْبُوا الْعَذَابَ وَالْأَذَى عَلَى كُلِّ مَنْ اتَّبَعَ النَّبِيَّ ﷺ، وَهَكَذَا تَرَى أَنَّ مُحَارَبَةَ الدَّعْوَةِ كَانَتْ تَسْلُكُ سَبِيلًا مُنَظَّمًا بِخُطَّةٍ مُحْكَمَةٍ، فَلَا نَ صَدَرَتْ الْأَوَامِرُ إِلَى الْقَبَائِلِ لِيَصْبُوا الْعَذَابَ وَالْأَذَى عَلَى كُلِّ مَنْ اتَّبَعَ النَّبِيَّ ﷺ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَوُثِّبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَجَعَلُوا يَحْبِسُونَهُمْ وَيُعَذِّبُونَهُمْ بِالضَّرْبِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَبِرَمْضَاءِ مَكَّةَ إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ، فَكَانَتْ فِتْنَةً شَدِيدَةً الزَّلْزَالِ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَافْتِنَ مَنْ افْتِنَ، وَعَصَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ مَنْ شَاءَ، وَمَنَعَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ مِنْهُمْ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ.

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَحَمَى اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ لِأَنَّهُ كَانَ شَرِيفًا مُعَظَّمًا فِي قُرَيْشٍ، مُطَاعًا فِي أَهْلِهِ، وَأَهْلُ مَكَّةَ لَا يَتَجَاسَرُونَ عَلَى مُكَاشَفَتِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَذَى، وَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ بَقَاؤُهُ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الَّتِي تَبْدُو لِمَنْ تَأَمَّلَهَا».

